أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْكِرَامُ!

لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ وَغَرَزَ فِيهِمْ خَصَائِصَ مُشْتَرَكَةً لَا يَخْلُو عَنْهَا إِنْسَان. وَتُسَمَّى مَجْمُوعُ هَذِهِ الْخَصَائِصِ بِالْفِطْرَة. اَلضَّحِكُ وَالْبُكَاءُ، وَالْحُزْنُ وَالْفَرَحُ، وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ، وَكَرَاهِيَّةُ الظُّلْمِ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ مَغْرُوزَةٌ فِي كِيَانِ الْإِنْسَانِ مُنْذُ وِلَادَتِه. غَيْرَ أَنَّ مَا يُحِبُّهُ شَخْصٌ مَا قَدْ يَخْتَلِفُ بَعْدَ ذَلِكَ عَمَّا يُحِبُّهُ غَيْرُهُ، وَكَذَلِكَ مَا يُبْغِضُهُ قَدْ يَخْتَلِفُ عَمَّا يُبْغِضُهُ غَيْرُه. وَهَذَا الْاِخْتِلَافُ نَاشِئٌ عَنِ الْقِيَمِ السَّائِدَةِ فِي الْأَوْسَاطِ الَّتِي تَرَبَّى الشَّخْصُ فِيهَا. وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَذِهِ الخَصَائِصَ الْمُشْتَرَكَةَ، لَا اخْتِلَافَ فِي ذَاتِهَا، لَكِنَّ الَّذِي يَخْتَلِفُ مِنْهَا هُوَ مَا تُوَجَّهُ إِلَيْهِ هَذِهِ المَشَاعِرُ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْقَائِل: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ط فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ط لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾[1]

إِخْوَتِيَ الْكِرَامُ!

إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَا وَجَّهَ "غَرِيزَةَ إِحْسَاسِهِ بِالْبُغْضِ" نَحْوَ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى وَنَحْوَ أُنَاسٍ يَرَاهُمْ مُخْتَلِفِينَ عَنْهُ ــ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُوَجِّهَهَا إِلَى الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ ــ إِنَّهُ يَقَعُ إِذَنْ فِي الْعُنْصُرِيَّة. وَمَا الْعُنْصُرِيَّةُ إِلَّا وَصْمَةُ عَارٍ فِي جَبِينِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمَرَضٌ مِنْ أَخْطَرِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَقِفُ عَقَبَةً فِي سَبِيلِ حَيَاةِ الْأُخُوَّةِ الَّتِي نَنْشُدُهَا. وَنَعْلَمُ جَمِيعًا أَنَّ دِينَنَا الْإِسْلَامَ قَدْ حَرَّمَ الْعُنْصُرِيَّةَ وَمَنَعَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَنْ يَتَفَاخَرَ بِعُنْصُرِهِ وَأَصْلِهِ مَهْمَا كَان. فَلَا إِنْسَانَ يَفْضُلُ إِنْسَانًا بِعِرْقٍ وَلَا بِلَوْنٍ وَلَا بِلُغَةٍ أَوْ بَلَد. فَكُلُّ ذَلِكَ أُمُورٌ قَدَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلإِنْسَانِ حِينَ يُولَدُ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْخِيَارُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِك. فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ سَبَبًا لِلتَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاس. فَلَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بِالتَّقْوَى. وَإِنَّ فِي أَقْطَارِ الأَرْضِ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ الْبُرَآءِ مَنْ يَتَعَرَّضُونَ لِلْعُنْصُرِيَّةِ وَالتَّمْيِيزِ بِسَبَبِ عِرْقِهِم أَوْ لَوْنِهِم أَوْ بِسَبَبِ دِينِهِم وَمُعْتَقَدِهِم.

وَأَكْبَرُ مِثَالٍ عَلَى مَا أَقُولُهُ، هُوَ مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ إِخْوَانُنَا فِي تُرْكِسْتَانَ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ سِيَاسَاتِ الصِّهْرِ وَالْقَمْعِ وَالْإِقْصَاء. فَيُحْرَمُونَ مِنْ أَبْسَطِ حُقُوقِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ وَحُرِّيَّةِ الْاِعْتِقَاد، وذَلِكَ فِي عَالَمِنَا الْمُتَحَضِّرِ هَذَا، وَالَّذِي لَا تَنْقَطِعُ فِيهِ شِعَارَاتُ حُقُوقِ الْإِنْسَان.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكِرَامُ!

إِنَّ طَرِيقَ الْخَلَاصِ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ الْمُهْلِكِ وَأَمْثَالِهِ هُوَ إِحْيَاءُ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ، وَفَهْمُهَا جَيِّدًا ثُمَّ تَطْبِيقُهَا فِي حَيَاتِنَا. فَمَعْرِفَةُ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يَتَسَاوَوْنَ فِي حُرِّيَّةِ الْحَيَاةِ وَالْاِعْتِقَادِ وَالتَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ، تِلْكَ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي مَنَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ وِلَادَتِهِ، وَتَقَبُّلُ أَنَّ النَّاسَ بِاعْتِبَارِهِمْ أُنَاسًا كُلَّهُمْ مُتَسَاوُوْنَ رَغْمَ تَنَوُّعِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَمَعْرِفَةُ أَنَّ الْأَفْضَلِيَّةَ سَبِيلُهَا الْوَحِيدُ هُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تُضِيفُ قِيمَةً إِلَى الْإِنْسَانِ أَوِ الْمُجْتَمَعِ أَوْ إِلَى الْحَيَاةِ, إِنَّ مَعْرِفَةَ كُلِّ ذَلِكَ وَتَنْفِيذَهُ فِي حَيَاتِنَا هُوَ الدَّوَاءُ لِهَذِهِ الأَمْرَاضِ وَهُوَ الْحَلُّ الْوَحِيدُ لِمَآسِي مُجْتَمَعَاتِنَا الْيَوْمَ.

إِذَنْ، فَنَحْنُ كَمَا أَنَّنَا نَلْبِسُ الثِّيَابَ السَّمِيكَةَ ضِدَّ نَزَلَاتِ الْبَرْدِ، فَإِنَّ عَلَيْنَا كَذَلِكَ أَنْ نَلْبِسَ لِبَاسَ التَّوَاضُعِ ضِدَّ مَرَضِ الْعُنْصُرِيَّةِ وَالتَّمْيِيز. وَكَمَا أَنَّنَا نَحْذَرُ الْاِقْتِرَابَ مِنَ الْمُصَابِ بِالزُّكَامِ كَيْ لَا يُصِيبَنَا عَدْوَى الْمَرَضِ، فَكَذَلِكَ عَلَيْنَا أَنْ نَحْذَرَ مَنْ يَنْشُرُ الْأَفْكَارَ العُنْصُرِيَّةَ وَأَنْ نَبْتَعِدَ عَنْهُمْ وَعَنِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي تُنْشَرُ فِيهَا مِثْلُ هَذِهِ الأَفْكَارِ، وَأَنْ نَظَلَّ مُدَافِعِينَ ضِدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاة.

قَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الأَفْكَارُ الْعُنْصُرِيَّةُ الْيَوْمَ وَبِفَضْلِ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الْاِجْتِمَاعِيِّ، تُنْشَرُ عَلَى الْمَلَأِ دُونَ أَيِّ تَحَرُّز. وَمِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ مَتَى طَالَ مُكْثُهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَفُوحُ فِيهِ الرَّوَائِحُ الْكَرِيهَةُ فَإِنَّهُ يَتَعَوَّدُ عَلَى تِلْكَ الرَّوَائِح. وَبَعْدَ مُدَّةٍ لَا يَكَادُ أَنْفُهُ يُحِسُّ بِهَا، فَلَا تَعُودُ تِلْكَ الرَّوَائِحُ مُزْعِجَةً لَه. لَكِنَّ عَلَيْنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ نَقِفَ أَمَامَ الْعُنْصُرِيَّةِ وَنَتَصَدَّى لَهَا دَائِمًا مَهْمَا كَانَ الْمَكَانُ الَّذِي تُثَارُ فِيهِ، سَوَاءٌ فِي الْوَسَطِ الَّذِي نَتَوَاجَدُ فِيهِ فِعْلًا أَوْ فِي مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ الْاِجْتِمَاعِيّ. وَإِنَّنَا لَا نَكُونُ مُنْصِفِينَ أَبَدًا إِذَا اعْتَبَرْنَا الْعُنْصُرِيَّةَ سَيِّئَةً مَتَى كَانَتْ ضِدَّنَا، وَأَمْرًا عَادِيًّا لَا إِشْكَالَ فِيهِ مَتَى كَانَ الَّذِي يُمَارِسُهَا وَاحِدٌ مِنَّا.

إِخْوَتِيَ الْكِرَامُ!

أُرِيدُ أَنْ أَخْتِمَ خُطْبَتِي بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاع: «**يَا أَيُّهَا النَّاس! أَلَا إِنَّ رَبَّكُم وَاحِدٌ! وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ! أَلَا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ على عَجَمِيٍّ، ولا لعَجَمِيٍّ على عَرَبِيٍّ، ولا أحمَرَ على أسوَدَ، ولا أسوَدَ على أحمَرَ؛ إِلَّا بِالتَّقْوَى**»[2]

[1] سورة الرّوم:٣٠

[2] مسند أحمد، رقم الحديث (٢٣٤٨٩)